أسبوعيات نائب

سبعة خطوط للعمل ريثما تصبح الانتخابات ممكنة

ناهض منير الريس

النائب عن مدينة غزة

سنجتهد قدر ما نستطيع في تقديم إجابة تفصيلية على السؤال : ما العمل ؟ ولذا العناصر المختلفة ـ الإرادية والقسرية ـ التي تشكل ذلك الموقف .

أولا ـ نحن الطرف الفلسطيني نخضع قسرا لاحتلال عسكري شمل أرضنا كلها في الضفة الغربية ، ولم تعد فروق على الأرض بين المناطق التي أطلق عليها اصطلاحيا بموجب الاتفاق الانتقالي وخرائطه عام ١٩٩٤ ألفاظ (أ) أو (ب) أو (ج) فكلها أصبحت ميدان حرب تنتشر فيه القوات المسلحة الإسرائيلية وتنفذ سلسلة من المهام والبرامج الواسعة قصيرة المدى وطويلة المدى ، وفي أولويتها تدمير كل عناصر المقاومة وكل ما يساعد على المقاومة . ومن مهامها أيضا تعطيل الحركة عبر السيطرة على طرق المواصلات ووضع الجمهور في حالة من الحصار التام . ومن مهامها المتقدمة تدمير البنية التحتية للزراعة والصناعة والتعليم والصحة العامة . ويجري تنفيذ هذه البرامج بالتوازي في توقيتات تتحدد حسب طاقة الوحدات المنفذة من ناحية وحسب تواجد الذرائع الصالحة للاستثمار الدعائي من ناحية أخرى . أما الهدف الاستراتيجي لجميع هذه التكتيكات فهو ترحيل أكبر عدد ممكن من الفلسطينيين في مرحلة لاحقة ملائمة لعلها نشوب الحرب ضد العراق . ولا ريب أن الرئيس الأمريكي بوش قد أعطى موافقته على التكتيكات وعلى الهدف الاستراتيجي كليهما أثناء لقاءاته العديدة مع شارون في البيت الأبيض . ويبدو أن الدولتين العربيتين الشقيقتين المجاورتين مصر والأردن حصلتا على معلومات جدية حول ذلك ، لأنه لو اقتصر الأمر على مجرد شائعات أو تمنيات في أوساط الإسرائيليين المتعصبين لما أقدمت المراجع الرسمية في كل منهما على الإعراب عن معارضة شديدة للترحيل والقذف بالمهجرين الفلسطينيين خارج وطنهم نحو واحد من البلدين العربيين المجاورين . ويبدو واضحا أيضا أن الولايات المتحدة لم تقم بأية بادرة لطمأنة أي منهما ، على الرغم من أن كلا منهما على علاقة وثيقة بالأمريكيين .

ومع أن القوات المسلحة الإسرائيلية لم تحتل جميع أراضي قطاع غزة على غرار ما حدث في الضفة ، فقد أسندت حكومة الاحتلال إلى القوات المدرعة المتمركزة في المستعمرات القائمة في القطاع ، وهي تشغل مع الشوارع الخاصة بها ثلث مساحته على الأقل ، مهمة القيام بعمليات خاصة شبيهة بعملياتها في الضفة ، ذات طبيعة تدميرية تنكيلية ضد أهداف مدنية غالبا ، إذ لم تعد هناك بعد قصف ونسف جميع مراكز الشرطة وأجهزة الأمن إلا الأهداف المدنية كالمزارع وآبار المياه وورش الحدادة ومنازل عائلات أولئك الذين تشتبه الأجهزة الإسرائيلية السرية في كونهم فدائيين .

<u>الذين لحسوا بصاقهم !</u>

ورافق هذا التنكيل العسكري في الضفة والقطاع حصار اقتصادي يضاعف معاناة الناس . وأبرز وجوه هذا الحصار وأشدها ضغطا على الفلسطينيين إغلاق أبواب العمل أمام طبقة عاملة نشأت خلال احتلال سبع وعشرين سنة في خدمة سوق العمل الإسرائيلية الوحيدة المفتوحة لها . وعمدت سلطات الاحتلال في الوقت نفسه لسد الطرق أمام أية واردات فلسطينية قد تنقط شيئا في حلوق الفلسطينيين .

أمام هذا الواقع القائم في مناطقنا استمرت السلطة الوطنية الفلسطينية في تحركاتها الدبلوماسية على ثلاثة محاور : الأمريكي والأوروبي والعربي .

*** ١) المحور الأمريكي : لقد لحست الولايات المتحدة جميع بصقاتها القديمة ، أعني موافقاتها السابقة على قرارات عديدة في الأمم المتحدة ومبادراتها السياسية السابقة وتوصيات مبعوثيها السابقين مثل مشروع لجنة ميتشيل والجنرال زيني ، ناهيك عن أكداس الأوراق والتقارير التي سطرها دينيس روس ومادلين أولبرايت في عهد الإدارة الديمقراطية ، وأوفدت في آخر طبعة مبعوثا جديدا يجيء ويروح هو وليام بيرنز، ثم أصدرت مبادرة جديدة تدعى ((خريطة الطريق)) وكفى بذلك الاسم مسخرة ! إذ يوحي كأن الطريق لم**

يكن معبدا من قبل ، وكأن السيد بوش هو الدليل الأول المبحر في مجاهل المستقبل . أما فحوى الخريطة فهو بيعنا وعدا آجلا (مجرد وعد) مقابل ثمن عاجل ندفعه . والثمن المطلوب منا دفعه هو إحلال العناصر التي يريدها الأمريكيون (والإسرائيليون ضمنا) على رأس السلطة محل العناصر التي لا يرغبون بها - وذلك باسم إصلاح السلطة الفلسطينية - ، وكذا قيامنا بحراسة إسرائيل داخلها وخارجها من هجمات العناصر الفلسطينية المقاتلة . وأما الوعد الآجل فهو إمكان اعتراف أمريكا بدولة فلسطينية بعدما يتم التفاوض عليها مع الإسرائيليين . ولسنا الآن في معرض التحليل والتعليق على المشروع الأمريكي ، الذي ما زال على كل حال مسودة مؤجلة لم تقدم للأطراف بشكلها النهائي ، ولكن الذي يهم وجهة النظر الفلسطينية أساسا هو أن وعود الأمريكيين كانت دائما غير موثوقة وظلت حبرا على ورق منذ تقرير لجنة كنج - كراين في عشرينيات القرن الماضي . فالأمريكيون لم يفوا للفلسطينيين سابقا بأي وعد ولم يثبتوا عند أي موقف يخالف - ولو جزئيا - رغبات اللوبي الصهيوني الحاكم في أمريكا . وفيما يتعلق بموضوع الدولة الفلسطينية تحديدا ثمة ملاحظتان بليغتان : أقربهما عهدا أن شارون نفسه كان قد صرح منذ بداية وزارته المشتركة مع حزب العمل أنه يوافق على إنشاء دولة فلسطينية (لم يشرح بالطبع مواصفاتها) . أما الملاحظة الأبعد عهدا فهي أن الرئيس الأمريكي الأسبق جيمي كارتر أدلى في الأقصر ، بعد اجتماع مع السادات أيام الإعداد للمفاوضات المصرية - الإسرائيلية عام ١٩٧٨ بتصريح مؤيد لإنشاء وطن قومي للفلسطينيين . وما هي إلا أيام - أو لعلها ساعات - حتى كان الناطق الرسمي الأمريكي يسحب تصريح الرئيس كارتر الذي حاز مؤخرا على جائزة نوبل للسلام ! فما الجديد إذن في خريطة الطريق ووعدها لنا بجائزة اسمها الدولة الفلسطينية ؟

رؤساء لا يوثق بهم

القيادة الفلسطينية لا تجهل هذا الكلام كله . بل إنها الأعلم بما برهنت عليه التجربة من عدم إمكان الاعتماد على وعود ينطق بها رجال دولة أو رؤساء لا يملكون - بافتراض حسن نواياهم أصلا - أمر أنفسهم عندما يتعلق الأمر بسياسة أمريكا الشرق أوسطية التي تصنع في تل أبيب . ناهيك عن أن الرئيس بوش شخصيا لا يوحي بأي قدر من حسن النوايا تجاه العرب والمسلمين ، حتى لو زار مسجد واشنطن ووقف أمام مصوري التلفزيون مؤخرا وقد خلع حذاءه ! فالعرب والمسلمون قادرون على التمييز بين الاحترام الحقيقي وبين تمثيل الأدوار أمام وسائل الدعاية الأمريكية التي تمهد لغزو بلد من أهم البلاد العربية ، وتلوح ، استطرادا ، بشن الحروب تباعا على بلدان عربية وإسلامية أخرى بغية تقسيمها وتنصيب عملاء لحكمها ، في سياق ما يدعى محاربة الإرهاب . وآخر تصريحات كولن باول (الذي أسندوا إليه دور المعتدل) تتكلم عن رسالة أمريكا في تعليم العالم العربي الديمقراطية وتخليصه من مناهج التعليم القديمة ورعاية أطفاله المحرومين من طفولتهم ! وآخر تصريحاته أيضا تتحدث عن تغيير القيادة الفلسطينية واعتبار ذلك شرطا لإصدار الوعد بالاعتراف بالدولة الفلسطينية بعد أن يتفاوض عليها الفلسطينيون مع الإسرائيليين ، علما بأن مجرد موافقة الإسرائيليين على دولة فلسطينية ، مهما كانت ، سيترتب عليه بصورة آلية موافقة الأمريكيين .

تستمر القيادة الفلسطينية في إدارة سياسة تقوم على المحاولات المستميتة لإبقاء الاتصال قائما مع الأمريكيين ، ولو لم ينجم عنه في أحسن الافتراضات إلا الحصول على وعود نعلم سلفا إنها كاذبة . وذلك بهدف مجرد إدامة اللعبة السياسية دائرة . فيعود الدكتور صائب عريقات مثلا من رحلة إلى واشنطن خالي الوفاض ، وإذا بالدكتور نبيل شعث في الطائرة إلى واشنطن . ويعود الدكتور نبيل بعد قليل صفر اليدين وإذا بالدكتورة حنان عشراوي تشد الرحال لجولة بين مكاتب المسؤولين الأمريكيين . وقد تحصل على تفسيرات لخريطة الطريق أو لا تحصل ، وقد تحصل على ما يمكن وصفه باختصار بأنه وعود ذات صيغ جديدة وقد لا تحصل ، ولكننا عندما تعود سنجد يديها تنطويان بدورهما على هواء .

السياسة فن الممكن

ما أكثر مبعوثينا منذ أيام موسى كاظم باشا ورحلاته إلى لندن في عشرينيات القرن الماضي . وما أكثر المبعوثين الغربيين إلينا منذ قدوم اللجنة الأمريكية إلى فلسطين في عام ١٩١٩ . كل هؤلاء قاموا

بجولات وقابلوا شخصيات وكتبوا تقارير ، وبمقارنة الظروف بعضها ببعض ربما كانت التسوية في تلك الأزمنة المنصرمة كلها أقرب منالا من الأيام التي نحياها والتي تشهد تفرد الولايات المتحدة بالقوة والهيمنة على العالم وتشهد تفرد اللوبي الصهيوني بالهيمنة على السياسات الأمريكية الخاصة بالشرق الأوسط على نحو لم يسبق له مثيل في تاريخ البشرية .

ويلاحظ مع ذلك أن بعض العناصر المتنفذة لدينا تلتمس للأمريكيين الأعذار بينما تلقي بالملامة كلها على هذا الطرف أو ذاك في الساحة الفلسطينية . ولا يدري المرء كيف يفسر ذلك بعد هذه التجارب الماضية والحاضرة كلها . والواقع أن هذا يذكرنا بعناصر فلسطينية قيادية قديمة رأت أيام الانتداب البريطاني أن من المستحيل الوقوف في وجه الامبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس ، ولذا قالت إنه لا بد من قبول سياساتها لأنها الشيء الوحيد الممكن ولأن السياسة أصلا هي فن الممكن . وأمثال هؤلاء يزينون هذا الاعتقاد غير الشعبي لدى تسويقه للجمهور بسوق الحجج القائلة إن الحصول على قسط من الحقوق خير من عدم الحصول على شيء بالمرة . فكأنهم نسجوا لأنفسهم بأنفسهم أوهام القدرة على نوال شيء بواسطة (الاعتدال) الذي شجعهم عليه المستعمرون وكافؤوهم عليه بالجاه والمال أحيانا . وحقيقة الأمر أن المستعمرين لا يفعلون ذلك إلا بغرض شق الصفوف وتشتيت القوى واستنزاف الكيان كله . على أن القيادة الفلسطينية بأسرها مجمعة على اتخاذ موقف استرضاء الأمريكيين بكل وسيلة ممكنة ، ولكن ، والحق يقال ، ليس بأي ثمن . وهذا ما ينبغي الحفاظ عليه ، وهذا ما أبقى للقيادة الفلسطينية سلطانها الأدبي على الناس .

موراتينوس وبيرنز ، الصوت والصدى

* ٢) المحور الأوروبي وإزاء استحالة الحصول من الولايات المتحدة على موقف ثابت مشجع ، ما يطلقون عليه ,, موقفا متوازنا ،، ولو في أضيق الحدود ، عملت القيادة الفلسطينية عملا واسعا في المحافل السياسية الأوروبية لكسب الفهم والتفهم من جانب الأوروبيين الذين أظهروا ميلا إلى الاستقلال بسياسة أوروبية تعمل لحساب المصالح الأوروبية . والتقطت القيادة الفلسطينية هذه الإشارة باكرا وخيل إليها أن بالوسع الاستناد إلى الانتماء العربي المعزز بالنفط للحصول على تأييد أوروبي يوازن الأمور ويؤثر على الولايات المتحدة لصالح إقامة الدولة الفلسطينية . وقد ألحت القيادة الفلسطينية في المطالبة بوجود مبعوث أوروبي أسوة بدينيس روس المبعوث الأمريكي حينذاك ، واستجاب الاتحاد الأوروبي للإلحاح فعين ميجيل موراتينوس .

بيد أن الولايات المتحدة كانت قد فطنت من قبل إلى ما يمثله صعود الاتحاد الأوروبي من منافسة محتملة في مجال احتكار الموارد الخام واحتكار الأسواق في الشرق الأوسط (وهذان الاحتكاران هما صلب ما يدعى المصالح الأمريكية) ، فشنت الحرب على العراق بقيادتها قبل عشر سنوات لاستباق خطى الأوروبيين نحو نفط العراق ونحو صداقة البلدان العربية التي كان يمكن أن تصبح أسواقها مفتوحة بكاملها للسلع الأوروبية .ونشأ عن حرب الولايات المتحدة على العراق واقع دولي جديد تميز بسيطرة كاملة للأمريكيين على المنطقة ونفطها مجسدة في القواعد الأمريكية المتزايدة في يابسة الخليج مع تواجد كثيف للأساطيل الأمريكية في مياه الخليج . وكانت الولايات المتحدة قد اخترقت الاتحاد الأوروبي ببريطانيا التي تلعب دور الإسفين الأمريكي داخل أوروبا أحيانا وتلعب دور وكيل الاتصالات والاستقطاب لأمريكا أحيانا أخرى ، وهو شيء يشبه تقريبا ما تحاول إسرائيل القيام به في القارتين الآسيوية والإفريقية . ويبدو أخيرا لا آخرا أن الولايات المتحدة تعمدت أثناء حرب الخليج أن تدع حليفاتها الأوروبيات يبصرن على الطبيعة ما بلغته القوة العسكرية الأمريكية من جبروت . والخلاصة أن أوروبا خففت من توجهاتها الاستقلالية محدثة نفسها بأن الوقت قد يكون مبكرا على تلك الاستقلالية المرغوبة ، وأن العرب أصحاب المكان غير معنيين بالذب عن أوطانهم ومواردهم ومصالحهم ، فرأت أوروبا أن تتشاغل عن تنفيذ نواياها مؤقتا بالانهماك في تنظيم بيتها الاتحادي الداخلي ، ناهيك عن أن الولايات المتحدة طرحت على الأوروبيين مشاريعها القاضية باحتواء العملاق الصيني ومن وراءه من الفهود والنمور الآسيوية مشيرة من طرف خفي إلى أن ما يجمع الأمريكيين والأوروبيين أكثر مما يجمعهم مع سائر الآسيويين ، ووضعت الأوروبيين أمام خيارين : إما الإذعان للهيمنة الأمريكية أو مواجهة حلف وشراكة أمريكية ـ صينية .

لم تتخذ أوروبا سياسة تجاه الفلسطينيين تختلف عن سياسة الولايات المتحدة . ولم يحمل موراتينوس معه إلا النصائح التي تقول : عليكم أن تستمعوا إلى ما يقوله الأمريكيون .. عليكم أن تكونوا عقلاء .. وبذلك لم يجد الفلسطينيون في أوروبا الطرف المحايد أو المشجع بل الصوت الأمريكي الآخر الذي يعمل لصالح الحل الأمريكي ويلعب دور الناصح الطيب .

وقد انضم الاتحاد الأوروبي إلى ما يعرف باللجنة الرباعية التي هي شكل جديد لهيئة دولية مختارة ، معنية بالتوصل إلى تسوية ، ولكنها لا تمثل في الجوهر شيئا مختلفا عن الولايات المتحدة وإرادتها المفروضة على الجميع بمن فيهم الروس الذين ظنوا أنهم يستطيعون أن يغنموا حصة من نفط العراق وأن يبيعوا للأمريكيين العراق نفسه ، ثم أسفروا أخيرا عن موقفهم القائل إن سياستهم هي مصلحتهم لا أكثر ولا أقل .

الذي يبعث على الذهول

؟ ٣) المحور العربي : حاولت القيادة الفلسطينية جاهدة إعادة تعريب القضية الفلسطينية في الوقت الذي باتت القضية فيه حملا ثقيلا رحب الجميع بالتخفف منه . ونقول الجميع لأن الذين يعون وحدة المصير القومي والأمن القومي العربي هم بدورهم فريسة خوف من أن يلقوا مصيرا منفردا يهدد منجزاتهم ، القطري منها والشخصي . ومن العبث أصلا أن يقال إن لدى الدول العربية في حالها الراهن أية خطط أو سياسات خارج نطاق تسيير الأمور داخل كل منها . وعلى الرغم من محاولات عمرو موسى أن يرقع ما في هذا الثوب البائس المدعو جامعة الدول العربية من خروق فإن الواقع القائم استعصى تماما على محاولاته .

وقد لا يستغرب أحد هذا الواقع الجلي ، لا بالنسبة لموقف الدول العربية ولا بالنسبة لواقع الجامعة العربية . ولكن الجميع مستغرب بل ومذهول من موقف المنظمات والأحزاب بل قل وجميع المؤسسات الشعبية العربية التي تستطع أن تفعل شيئا يزيد عما فعلته الدول .

ريثما تتاح الانتخابات

هكذا تجد القيادة الفلسطينية نفسها في عزلة مطلقة ، يعبر عنها تعبيرا قاسيا صمت الأنظمة وعزوفها فترات طويلة عن مجرد الاتصال والاطمئنان .

ومن مجموع هذه المعطيات ، وغيرها مما لا متسع لذكره وإن كان مختزنا في الضمير ، نخلص إلى ما يلي :

أولا - على السلطة الفلسطينية أن تطالب بانتداب قوات دولية تفصل على الخط الأخضر ما بين الإسرائيليين والفلسطينيين .

ثانيا - تتوقف الوفود الذاهبة إلى الولايات المتحدة . ولا تعقد جلسات مع مبعوثين أمريكيين أو أوروبيين إلا بواسطة الرئيس المنتخب للفسطينيين ما دام رئيسا منتخبا وهو ياسر عرفات .

ثالثا - يتعين مصارحة المجلس التشريعي الفلسطيني والأطر التنفيذية بالوضع السياسي الذي ظل حتى الآن محصورا في نطاق جمعية سرية ضيقة من المختارين وفق المزاج . فلم يعد هناك ما يستوجب حصر الأسرار في طائفة الغامضين المعدودين من الآلهة (والله أعلم بهم) . والجميع بعرفون اليوم أن مبعث السرية كان مدى ما يمكن الذهاب إليه من التنازلات . والجميع يعرف الآن أن ذلك لم يكن منتجا . فاللعب يجري بأوراق مكشوفة والوضوح اليوم أفعل من الغموض ، وما لا بد أن يكون لابد أن يكون . ولم يعد لدى الجانب الفلسطيني ما يمكن أن يدعى سرا يستلزم هذه الخلوات الأقرب إلى أسلوب العبادة التي تتبعها بعض الطوائف .

رابعا - ينبغي الاستفادة من تجربة الدفاع الذي قام به الشعب الفلسطيني في مدنه وقراه في الضفة والقطاع وإعادة تنظيم الدفاع عما في حوزتنا مستفيدين من دراسة التجربة . وينبغي لهذه الغاية إجراء حوار بين أطراف القوى الوطنية والإسلامية يوصل حتما إلى نتائج ملزمة . ويتعين الاتفاق بين أصحاب الاختصاص على سمات الاستراتيجية الدفاعية التي تنشط وتهدأ وفقا للنهج الميداني الذي يتبعه الخصم .

خامسا ـ على الفصائل الفلسطينية المختلفة أن تجد طريقة للاستفادة من التنظيمات الشعبية وشبابها في البلاد العربية .

سادسا ـ ولكن نقطة البدء في كل ما تقدم هي إصلاح السلطة الوطنية إصلاحا جذريا يسمح لهذه الأمور أن تحدث وأن تؤتي أكلها . ومفهوم طبعا أن الإصلاح المنشود هو الذي يؤهل للصمود وللثبات ولتوفير الأمن والاحتياجات في حدودها الدنيا . أما بقاء الوضع على ما هو عليه ، والتمسك بمقولة ليس في الإمكان أبدع مما كان فسيؤدي إلى الانهيارات وإلى سيل التفجرات الداخلية التي نعاينها اليوم .

سابعا ـ وريثما تكون هناك انتخابات تفرز قيادة جديدة للبلد (هذا إن سمحت الظروف بتلك الانتخابات) ، فمطلوب تشكيل لجان شعبية تنهض بأعباء الطوارئ ، وتتشكل من السلطة ومن الفصائل ومن الفعاليات الشعبية التي أثبتت وجودها في المرحلة الماضية .